



الحضارة الإسلامية

وبناء الفكر الإنساني

الباحثة: رقية عبد الكافي المسدي

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على من علم الأمة أعظم حضارة عرفها التاريخ، سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين.

لقد ظهرت كثير من الحضارات البائدة على مر العصور، وتركت خلفها آثارها، والحضارة الإسلامية من أعظم الحضارات، فهي باقية إلى قيام الساعة بمشيئة الله، وهي قائمة على أساس تكريم الإنسان والنهوض به، وقد تركت أثراً واضحاً في حياة البشرية.

ولكن الأمة أو الحضارة الإسلامية اليوم تعاني من داءٍ خطير، لذلك علينا أن نبحث عن هذا الداء وعن أسبابه، وأن نحاول أن نضع دواءً وطرقاً لعلاج، وموضوع (عودة الحضارة الإسلامية) موضوع واقعي، له صلة وثيقة بالبعثة المحمدية، وواقع الحياة وحاضر الإنسانية ومستقبلها، ودور الأمة الإسلامية في بناء الحضارة وتوجيهها.

والحديث عن الحضارة الإسلامية يعد من أوائل المؤلفات المعاصرة، ولكن جلّ هذه البحوث تحدّثت عن منجزات الحضارة الإسلامية وآثارها، فهي بحوث لا يرى القارئ من خلالها إلا صوراً برّاقة للحضارة الإسلامية التي امتدت خلال ربع قرن، وانتشرت في معظم العالم. ولكن في هذا البحث سنتحدث بمشيئة الله، عن المفتاح الذي إن عشر عليه المسلمون فاستعملوه اليوم، دخلوا من حيث دخل أسلافهم ونشروا ماضيهم الحضاري من جديد.

إن مشكلة الحضارة، تكمن في المعرفة والرغبة، فبمقدار ما تكون المعرفة صحيحة، وتكون الرغبة النفسية ملائمة ومتفقة مع المعرفة الصحيحة؛ تنشأ الحضارة نشأة سليمة في طريق الاستقامة والصلاح. والقرآن الكريم هو المصدر الوحيد الذي يبين طريق المعرفة للإنسان، ويضمن انبثاق الرغبة الملائمة مع المعرفة الصحيحة.

وسأضع بين يدي القارئ في هذا البحث فصلين، الأول: مقدمة في الحضارة الإسلامية، ويحوي خمسة مباحث، والثاني: شروط النهضة الإسلامية، ويحوي مبحثين. ونسأل الله التوفيق والإخلاص.

الفصل الأول: مفهوم الحضارة الإسلامية:

المبحث الأول: أسس الحضارة الإسلامية ومصادرها:

لقد تغير العالم بعد بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، حيث نزل القرآن الكريم بالأحكام الشرعية والتعاليم السامية، وبفضل تلك التعاليم السامية؛ ارتقت الإنسانية، وعمّ الإقبال على الإسلام، وانتعشت القلوب الخاوية بالإيمان، واستضاءت العقول بنور جديد. فالإسلام مقت الظلم والبغضاء، ونشر المساواة، واحتضن المساكين والمنبوذين^١، ووضع للناس المنهج السليم الذي يضمن لهم الارتقاء والسعادة، وترك الطريق واسعاً أمامهم للتبيل من النظم الحضارية الأخرى في تطوير وتحسين واقعهم، على حسب ما تقتضيه المصلحة، ولكن ضمن دائرة الإسلام^٢.

ولقد ظهرت تربية النبي عليه الصلاة والسلام لأصحابه رضوان الله عليهم في أخلاقهم و أفكارهم وعبادتهم، حيث كانوا يتألمون للإنسانية، ويعطفون على الخلق، ويعفون عن الأعداء رغم عداوتهم وأذاهم.

إن هذا التحول العظيم في حياة البشرية، معجزة من معجزات الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم، ونفحة من نفحات الرحمة الإلهية، التي عمّت الأرجاء.

هذه هي حضارتنا الإسلامية، وهذه هي مبادئنا وأخلاقنا، وهذا هو مجدنا. فأسأل الله أن يعيد هذه الحضارة والمجد لهذه الأمة الإسلامية العريقة.

(١) أبو الحسن الندوي، الإسلام أثره في الحضارة، وفضله على الإنسانية، ط١ (القاهرة: دار الصحو، ١٩٨٦م)، ١٥/١.

(٢) عبد الرحمن حسن الميداني، الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها، ط١ (دمشق: دار القلم، ١٩٩٨م)، ٢٤/١.

هناك تعريفات متعددة للحضارة نذكر بعضها منها:

* كلمة (الحضر) في اللغة: تقابل كلمة (البدوة) في المعنى.

الحضارة اصطلاحاً: هي الجهود التي يبذلها الإنسان لينتقل من حياة البدوة وبساطتها، إلى حياة العمران وتعقيدها^١.

فالعلاقة بين المعنى اللغوي والتصد الاصطلاحي لكلمة الحضارة واضحة جلية.

* هناك تعريف آخر للحضارة: الحضارة هي مجموعة المبادئ والعقائد والأفكار والأصول التربوية التي تثمر لونها ما من ألوان الحياة الاجتماعية بمقوماتها المختلفة^٢. فالحضارة على هذا صفة للناس والجماعات، وليست صبغة تبقى على وجه الأرض!. والحضارة على هذا تزول بزوال الناس المتصفين بها، مهما تركت ورائهم من آثار.

* الحضارة الإسلامية كما ذكرتها سناء كويكات: "هي ما قدمه الإسلام للمجتمع البشري من قيم ومبادئ وقواعد، ساعدت على علو منزلته وتقدمه في جميع الجوانب. وتهدف الحضارة الإسلامية إلى تحقيق السعادة الروحية للبشر كافةً وتعمير الأرض وتنميتها وفقاً لشريعة الله تعالى"^٣.

ثانياً: مصادر الحضارة الإسلامية:

الحضارة الإسلامية مختلفة عن سائر الحضارات لأنها مستمدة من كتاب الله تعالى، ومن السنة النبوية الشريفة، ولكنها تتفق مع باقي الحضارات في بعض المصادر الأخرى المتفق عليها بين المؤرخين، حيث تعدّ أصول لدراسة الحضارة بشكل عام:

(١) محمد سعيد رمضان البوطي، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، ط ١ (دمشق: دار الفكر، ١٩٨١م)، ١٩/١٠.

(٢) ينظر: أبو الأعلى المودودي، الحضارة الإسلامية: أسسها ومبادئها، (١٩٣٢م)، (نقلًا عن: المرجع السابق).

(٣) الدويكات، سناء (٢٠١٦م)، مفهوم الحضارة الإسلامية ومصادرها.

الباحثة: رقية عبد الكافي المسدي

الحضارة الإسلامية وبناء الفكر الإنساني

* القرآن الكريم: فهو المصدر الأول والأساس لدراسة التشريع والحضارة والنظم الإسلامية، وهو الكتاب المحكم الذي انتظمت فيه القوانين والقواعد التي انضبط بها المجتمع الإسلامي، ومن خلالها تأسست وتطورت نظمهم السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية.

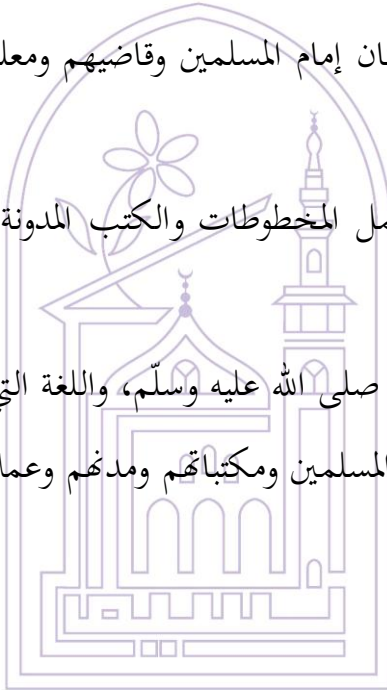
● السنة النبوية الشريفة: بما أن القرآن الكريم هو أساس التشريع، فإن السنة النبوية هي الشارحة له. وقد أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، ووضع اللبنة الأولى لنظام الحكم والإدارة والاقتصاد وغيرها، وأصبحت المدينة المنورة هي المركز الأول للحضارة الإسلامية، وفيها نشأت وازدهرت واكتملت.

● ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان إمام المسلمين وقاضيهم ومعلمهم، وفوق هذا، بل وأساسه أنه رسولهم ونبيهم.

● المصادر المكتوبة: وهي كثيرة، وتشمل المخطوطات والكتب المدونة والوثائق الرسمية والرسائل المتبادلة بين الأمراء والولاة، وغيرها.

● اللغة العربية: وهي لغة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، واللغة التي نزل فيها القرآن الكريم.

● المصادر الأثرية: تتمثل في مساجد المسلمين ومكتباتهم ومدنهم وعملاتهم وغيرها^١.



(١) الدويكات ، المرجع السابق.

أولاً: عناصر الحضارة الإسلامية ١:

عناصر الحضارة الإسلامية تتمحور حول هذه الأساسيات الثلاثة: الإنسان، الحياة، الكون.

- الإنسان، أو الكيان الإنساني، ويقصد به عقله وتفكيره ووجدانه.
- الحياة، ويُقصد بها العمر الذي يتمتع به الإنسان.
- الكون، والمراد به المكونات المتنوعة المختلفة، التي سخرها الله للإنسان. ومن البداهة أن الإنسان أهم هذه العناصر الثلاثة، إذ هو العنصر الفعّال والمؤثر، أما الحياة والكون فهما متأثران بالإنسان. وهذا يعني أن الإنسان هو محور العمارة الكونية في الحياة، وذلك بما قد أوتي من نعمة الفكر والبصيرة.

ثانياً: خصائص الحضارة الإسلامية:

- (١) قائمة على أساس العقيدة الإسلامية، التي تدعو إلى وحدانية الله، مما جعلها تسمو في تحقيق وفهم هذه الوحدانية، حيث كان لها أكبر الأثر في تصحيح العلاقة بين الحاكم والمحكوم.
- (٢) إنسانية الهدف، عالمية الرسالة. فالقرآن الكريم أعلن وحدة النوع الإنساني رغم تنوع أعرافه وأصوله ومذاهبه.
- (٣) أنها جعلت للقيم الأخلاقية المرتبة الأولى في جميع أنشطتها ونظمها، فقد كانت تُراعي المبادئ الأخلاقية تشريعاً وتطبيقاً في الحكم والاقتصاد والأسرة والحرب والسلام.
- (٤) أنها تؤمن بالعلم، فهي تخاطب العقل والقلب معاً، وقد استطاعت الحضارة الإسلامية أن تنشئ نظاماً للدولة قائماً على أساس الدين، دون أن يُحِيل الدين عن رقي الدولة، بل كان الدين أساس رقيها، فمن بين جدران المساجد في دمشق وبغداد والقاهرة وغرناطة، انطلقت أشعة العلم إلى أنحاء العالم كله.

(١) البوطي، مرجع سابق، ٢٠/١.

(٥) التسامح الديني الفريد، فالحضارة الإسلامية التي أسست قواعدها على مبادئ الدين، هي من أكثر ما عرف التاريخ تسامحا وعدالة ورحمة وإنسانية^١.

المبحث الثالث: الحضارة الإسلامية بين الواقع والمأمول:

يجب أن يفكر المسلم في طريق سيره في الحياة، وفي الظروف الملائمة التي تتهيأ له من أجل أن يكون له دور في تاريخ الحضارة الإسلامية، ودور المسلم يتمثل في الضرورات الداخلية والخارجية، وهي ضرورات بناء في الداخل، وإشعاع في الخارج؛ لذلك عليه أن ينشر الإسلام المعتدل الصحيح، وأن يقوم بدور الريّ للشعوب والمجتمعات المتحضرة^٢. ولكي يستطيع المسلم أن يبلغ الحقيقة الإسلامية ويعمم دينه الذي فضّله الله به؛ عليه أن يرتفع بعلمه وعمله إلى قُدسيّة الشريعة الإسلامية، ومن ثم ينزل إلى الحضارة، فيرويها بالحقيقة الإسلامية، لأن القداسة من الله وحده.

إن الحضارة في عصرنا هذا أتلفت قُدسيّة الوجود في النفوس والقلوب وفي الثقافة؛ لأنها عدت القدسيّة شيئاً تافهاً لا حاجة للإنسان به. وإنما أتلافها بسبب أنها أخضعت كل شيء إلى مقاييس الكم.

ولقد كانت الحياة مقدّسة في كل شيء؛ في الإنسان والحيوان والحشرات، وكانت هناك تفاصيل دقيقة توحى بقداسيّتها، حيث أن المارّ في الطريق إذا لفت بصره فتات الخبز؛ فإنه يأخذه ثم يقبله ويضعه في مكان طاهر؛ لأنه يعلم قُدسيّة هذه الأشياء. أما الأوربيّ فلا ينظر إليه؛ لأن هذا الفُتات لا قيمة ولا ثمن له في نظره الكمي؛ لذا يلقي في سلة المهملات.

(١) مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، ط١ (بيروت: دار الوراق، ١٩٩٩م)، ٧٠/١.

(٢) مالك بن نبي، دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، ط١ (دمشق: دار الفكر، ١٩٩١م)، ٣٩/١.

وأوروبا تركت في سلة مهملاتها كل القيم المقدسة، وهي الآن في خضم الأشياء التي تنتجها التكنولوجيا، وفي آخر الطريق، دار عليها طغيانها العقلي والعلمي حتى تلاشت القاعدة الأخلاقية الروحية التي تتحمل عبء الأثقال الاجتماعية والمادية.

والأمة الإسلامية اليوم تعاني من الأزمات المتنوعة التي قد نسميها (الأزمة الحضارية)، وعلى سبيل المثال، الحالة الاقتصادية المتدهورة، ومن ناحية أخرى تعاني الإنسانية المتحضرة أزمتهما، ولكن المشكلة التي تعانيها الإنسانية المتحضرة، أخطر وأعمق من مشكلة الأمة الإسلامية؛ لأنها لا تمس جوهر كياننا الإنساني، فيبقى على الرغم من ضعف الأمة، شيء من التكريم الذي وضعه الله للإنسان، أما المشكلة التي تنتاب الإنسان المتحضر اليوم؛ فهي أحياناً تفقده إنسانيته، فيصبح إما وحشاً مفترساً ينقض على كل شيء، أو حيواناً تائهاً عن طريق المخدرات مثلاً، فهذه هي الأزمة الخطيرة التي تعانيها الإنسانية المتحضرة اليوم^١.

إن المسلم إذا أراد أن يحقق التغيير في محيطه ومجتمعه، فعليه أولاً أن يحقق ذلك في نفسه، وبذلك تتوفر شروط رسالة المسلم في الأرض. والطرق العملية لتحقيق التغيير، تتمثل في إنقاذ المسلم خاصة، والإنسانية عامة، وعندها يجب على كل مسلم، أن يحقق بمفرده ثلاثة شروط وهي:

(١) أن يعرف نفسه عبداً مملوكاً لله وحده.

(٢) أن يُقدّر الآخرين، وأن يحبهم بصدق وإخلاص لله تعالى، حتى تصل إليهم على جسر هذه المحبة؛ حرارة الإسلام، وكل ما يتعلق بمفهوم التغيير، وينبغي له أن يعلم ما في نفوس الآخرين، وذلك لأمرين: أحدهما أن يتقي شرهم بسبب معرفته وإدراكه لنفوسهم، والآخر لتبليغهم الإسلام والهداية الإسلامية.

(٣) أن يعرف الآخرين عليه، ولكن بالصورة المحببة الإيجابية التي كان عليها السلف، بوصفه عينة من العينات البشرية التي يصنعها الإسلام، لأن حقيقة المسلم محجوبة عن نظر الآخرين، وعليه أن يظهر هذه الحقيقة المتمثلة في كرامته، أخلاقه، علمه، بطولته، نزاهته ومجده^٢.

(١) مالك بن نبي، دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، ط١ (دمشق: دار الفكر، ١٩٩١م)، ٣٩/١.

(٢) بن نبي، المرجع السابق، ٤٢/١.

هناك سؤال يخطر في بال كثير من الناس، لماذا تراجعَت الحضارة الإسلامية وازدهرت الحضارة الغربية؟ سؤال سطحي جداً، وعمامة الناس يطرحونه. والمؤسف أن الإجابة عن هذا السؤال تأتي غالباً أكثر سطحية من السؤال نفسه، فأكثرهم يجيبون بأن سبب تخلف الحضارة الإسلامية؛ يتمثل في انطواء المسلمين على أنفسهم، وعدم التفتح على الحضارات الأخرى... الخ.

والذين يقولون ذلك، لا يدركون أن جوابهم هذا يزيد الأمة الإسلامية تخلفاً وضياعاً، ويبعدهم عن سبيل استعادة شأنهم وازدهار حضارتهم!.. ذلك لأن التخلف الذي يعاني منه المسلمون اليوم، إنما يتمثل في أنهم تحوّلوا من الإبداع إلى التبعية، في مبادئهم وقيمتهم ومنجزاتهم الحضارية، دون تفكير أو اجتهاد^١.

إن المسلمون في القرون الأولى تذوّقوا المنهج القرآني للحضارة، وفهموا شروطه وأركانه بأسلوب أورشتم اليقين بأنه السر الوحيد في ازدهار الحضارة الإسلامية، مما أدى حقيقةً إلى نهضتهم ورفيتهم، في جميع مجالات الحياة، وفي أقصر مدة زمنية عرفها التاريخ، وقد تحدث عنها مختصو الحضارات الإنسانية من أوريين وعرب، بانبهار عجيب. إن أسس هذه الحضارة الفكرية والنفسية الراسخة في نفوسهم إن لم تكن كذلك، لما بقي لهذه الحضارة من آثار مجدها العظيم شيء^٢.

ذلك التذوق الذي لا يتم إلا بعد تدبر كتاب الله تعالى بتجرد ودقة، وبالالتزام بالحقيقة الإسلامية بجميع أركانها، وما من إنسان أدرك أثر فهم الأمة الإسلامية في غابر حياتها، لحقيقة عناصر الحضارة أو أركانها التي سبق بيانها، والتي تتمثل في الإنسان والحياة والمكونات، وللعلاقة فيما بينها، على النحو الذي بصّر به القرآن، في دفعها نحو قمة الحياة الحضارية المثلى؛ إلا ويدرك بوضوح عوامل انحطاطها وتراجعها الحضاري والاجتماعي.

(١) البوطي، مرجع سابق، ٣/ ١٣٨

(٢) الميلاي، مرجع سابق، ٣/ ١١٩ .

إنّ الحضارة الإسلامية بقيت في أوج ازدهارها إلى أواسط عهد الخلافة العباسية، وإن كانت تظهر أخطاءً وانحرافات، فهي تزداد آناً وتقل آناً آخر؛ لكنها سرعان ما تذوب في تيار الإصلاح الشامل. والخط البياني لازدهار الحضارة الإسلامية وقوتها بدأ يضطرب بعد ذلك، بين الهبوط والارتفاع، وذلك بسبب انقسام الدولة الإسلامية الواحدة، إلى ممالك ودويلات، وزادها ضعفاً الحملات الصليبية والغزو المغولي^١.

ولكنها كانت تحتفظ على الرغم من ذلك، بسرّ ازدهارها وروح بقائها، وعندما ظهرت الخلافة العثمانية، عاد الخط البياني للحضارة الإسلامية يتجه نحو الصعود، حتى بلغ أوج النهضة في عصر الخليفة الإسلامي العظيم محمد الفاتح. ولكن ظهر في أواسط عمر هذه الخلافة، الافتتان بالمال والركون إلى المتعة والانصراف إلى البذخ وإضاعة الوقت فيما لا طائل منه، مما أدى إلى أن تنحدر عندئذٍ دولة العثمانيين نحو الضعف، وظهرت فيما بينها عوامل التنافس فالتصارع، وغفل الكل بذلك عن العدو المتربص.

ومنذ ذلك الحين اتخذ الخط البياني للحضارة الإسلامية طريقه نحو الهبوط والانحدار، ولا يزال ينحدر إلى يومنا هذا، و الذي حدث هو أن تلك الحضارة تجردت عن سرها، وانفصلت عن روحها، وما سرها وروحها إلا أنها كانت تنهض على دعامة من التبصرة القرآنية^٢.

بقي أن نجيب عن الشطر الثاني من السؤال؛ فلماذا ازدهرت الحضارة الغربية؟ أجل، لماذا ازدهرت الحضارة الغربية هذا الازدهار العجيب، على الرغم من أنها لم تقم على شيء من دعامة التبصرة القرآنية؟! هناك سنة ربّانية ينبغي أن نتأملها، من بين سائر السنن في الكون، تتعلق بالإجابة على هذا السؤال، تتلخص هذه السنة، في قوله عزّ وجل: "كَلَّا بُدِّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا".

(١) البوطي، مرجع سابق، ٣/ ١٣٨.

(٢) البوطي، مرجع سابق، ٣/ ١٣٩.

ومعنى هذا الكلام، أن الله سبحانه يعلن لعباده جميعاً، أن عطائه الوفير، معروض للجميع، وأن هذا الكون مسخراً للناس جميعاً، بقطع النظر عن أصنافهم ومذاهبهم وأديانهم، هذه السنة الربانية تقول: كل من نظر إلى هذه المكونات، وحاول جاهداً أن يستعين بعقله، وبكل ما آتاه الله عز وجل من إمكانيات، أن يستثير كوامن هذه المكونات، وأن يسخرها علماً واقتصاداً وحضارةً وفكراً؛ فإن الله عز وجل يفتح له السبل لذلك.

وما من إنسان أو أمة بذل أيّ منهما جهداً في سبيل الوصول إلى غاية، إلا واقتضت سنة رب العالمين أن يكرمه بثمرات جهده، وأن يعطيه نتائج العرق الذي بذله في سبيل تحقيق غايته، ولا فرق في هذا بين مؤمن أو كافر^١.

والباري عز وجل أعلن في كتابه أنه سخر لنا ما في الأرض من مدّخرات، وسخر لنا جميعاً السماء والبحر وما فيهما، وليس بيننا وبين أن نستفيد منها لبناء الحضارة الشامخة؛ إلا أن نوقظ عقولنا، ونتحرى هذه الكنوز المدّخرة في باطن الأرض، وأن نسلط عليها أشعة أفكارنا، وأن نستعيض عن الكسل بالجهد.

ومن بذل جهداً لاكتشاف حقيقة علمية، أو للوصول إلى إبداع أو اختراع، عن طريق هذا الذي سخره لنا الباري عز وجل، لا بدّ أن يصل إلى غايته.

إن واقع الحضارة الغربية اليوم، أيّاً كانت حقيقة تألقها، وأيّاً كان موقفنا ممن يشيد بها، إنما هي ثمرة لجهود بذلها الغربيون، وتوارثوا جهوداً عن جهود منذ الإمبراطورية الرومانية، بذلوا جهوداً في سبيل العلوم والمعارف، وفي سبيل الشريعة والقوانين، والنظم العسكرية، قبل أن يتوارثوا الثمار، فكان من مقتضى هذه السنة الربانية، أن يقدم لهم ربنا عز وجل ثمرات جهودهم^٢.

(١) البوطي، محمد سعيد رمضان، لماذا تقدم الغرب وتخلف العرب؟، متاح على youtube.

(٢) البوطي، المرجع السابق، متاح على youtube.

الفصل الثاني: نهضة الحضارة الإسلامية:

المبحث الأول: الحضارة الإسلامية وعمارة الأرض:

إن من أعاجيب العلاقة التي أقامها الله سبحانه وتعالى بين الدين والدنيا، أن من لم يخلص دينه لله عز وجل، ولم يجعله في المرتبة الأولى من قصده وهواه؛ لا يستطيع أن يخلص في خدمة أمته، ولا أن يَصْدُقَ في تحقيق مصالحها الدنيوية العاجلة.

وُزِبَ سائل يقول: ما علاقة القرآن الكريم بالحضارة ومشكلاتها، إنما هو كتاب دين وعبادة، يذكر الناس بواجبهم تجاه ربهم!. والجواب: هو أن القرآن كتاب دين وعبادة، من حيث أنه يحتمل الناس مسؤولية بناء الحضارة. ومعنى هذا أن الدين الذي ألزم الله به عباده بما فيه من نكسك وعبادات؛ إنما هو تزكية النفس البشرية التي هي الشرط الأساسي لتحمل الإنسان مسؤولياته الحضارية بصدق بمعناها الشامل العام، من الناحية المادية والعلمية والاقتصادية، وإقامة مجتمع إنساني سليم بالتعليم والاختيار. وينص القرآن الكريم في مواطن كثيرة على هذه الوظيفة التي كُفِّلها الإنسان. قال تعالى: " هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا " (هود: ٦١/١١).

إن إعمار الأرض مظهر تتحقق فيه عبودية الإنسان لله؛ لأن المعرفة بأسرار الكون توصل الإنسان إلى إدراك حكمة الله في الوجود، وصلاح منهج الإنسان في إعمار الأرض مرتبط بتكوين نظرة كليّة عن السبب الأول في وجود الخلق، والعلاقة التي تربطه ببقية الكائنات في الوجود.

ويمكن فهم إعمار الأرض على أنه بذل الجهد لإقامة مجتمع فاضل عادل، تتحقق فيه للإنسان الكرامة التي أرادها الله له، والحرية التي هي مناط المسؤولية، وإقامة مجتمع ينتشر فيه السلام للإنسان والطبيعة، وتسوده الرحمة والمحبة.

إن عملية الإعمار المطلوبة شرعاً لا بد أن تشمل جوانب الحياة الثلاث: المادّة - الرّوح - العقل، بتوازن وانضباط، بحيث لا يطغى جانب على آخر، وهذا ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم عندما

(١) البوطي، مرجع سابق، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، ٢٤/١.

الباحثة: رقية عبد الكافي المسدي

الحضارة الإسلامية وبناء الفكر الإنساني

هاجر إلى المدينة وبنى المسجد، فكان أول إعمار يقوم به في المدينة المنورة، وقد شمل هذا الإعمار جوانب الحياة الثلاث؛ حيث أن هذا المسجد كان إقامة للإنسان والبنيان ومكاناً يتجمع فيه المسلمون، وتُستقبل فيه الوفود، وتُؤدّى فيه العبادات الروحية، وتلقى فيه الدروس والتعاليم التي ترسم المنهج، وتوزع فيه المهام العسكرية، وتُمارس فيه الدعوة إلى الدين.

وإذا صَاحَبَ التقدّم المادّي البنائي تحلّفٌ عن القيم والفضائل الأخلاقية، فسدت البيئة، وانهدمت الحضارة، ففساد المنهج يمثل اصطداماً للإنسان بالكون؛ وهو سيؤدي إلى شقاوته ومعاناته وتخبّطه^١.
المبحث الثاني: سبل نهضة الحضارة الإسلامية ٢:

إن العلاج الذي سنذكره يتضح من خلاله السبيل الذي إن سلكته الأمة؛ استعادت حضارتها وشأنها، وتخلصت من مظاهر ضعفها وتخلّفها. وهذا العلاج خاصّ بالأمة العربية والإسلامية دون سواها، ذلك لأن الله سبحانه يعامل عباده المسلمين، في نطاق الحياة الدنيوية، معاملة مختلفة عن عباده الآخرين.

ويجب من أجل ذلك، أن يحقق المسلمون الشروط التالية:

أولاً: وجود الرغبة الكافية لديهم في السعي إلى استعادة هذه الحضارة:

وهذا أول شرطٍ للوصول إلى أي هدف من الأهداف؛ لأن روح أي عمل، تتمثل في الرغبة الصادقة في النهوض به. وهذه الرغبة يجب أن تتحلى بها الأمة كلها أو غالبيتها العظمى. هذه الرغبة تتعلق في الحقيقة بالغايات والنتائج الأخيرة، وهي لا تتّجه إلا نادراً، إلى ممارسة أسبابها وعواملها التي لا بد منها، حيث أن الرغبة الصادقة مفقودة في عصرنا هذا، إلا عند قلة من الناس، وإنما يشغلهم عنها أهوائهم وتنافسهم على الرخيص من المتع والملذات العابرة.

(١) علي جمعة، البيئة والحفاظ عليها من منظور إسلامي، ط ١ (القاهرة: شركة الوابل الصيب للإنتاج والتوزيع والنشر، ٢٠٠٩م)، ٦٧/١٠.

(٢) البوطي، مرجع سابق، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، ٣/١٥٨.

لأن الجهد الحضاري؛ إنما هو جهد جماعي، لا يثمر إلا إذا كان يداً واحدة، ولا بد أن تبدأ الأمة الإسلامية سعيها لاستعادة مكانتها الحضارية، بتجميع شتاتها، حتى تصبح منصهرة في كيان واحد، وإنّ التفرق فيما بيننا، لا بد أن يتحول بالضرورة إلى خصام فعداء، ثم إنه يُقصدنا عن نيل ثرواتنا والإستفادة منها مع أنها موجودة، ويبعدنا عن التمتع بقوتنا وهي متوفرة، وأن يجعل العدو يستهين بنا ونحن كثير!. ولا يمكن لنا أن نجتمع إلا إذا احتكنا إلى ربوبية الله وأوامره ونواهيهِ. والله تعالى يقول: " واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا... " (آل عمران: ١٠٣/٣)^١.

ومثالاً على وحدة المسلمين؛ أن شعوب الأمة الإسلامية كانت تعيش في تكامل اقتصادي، وكان التجار المسلمين ينقلون بضائعهم التجارية إلى كل أنحاء العالم، وأحياناً كانت تتعرض بعض بلدان المسلمين لظروف اقتصادية عصيبة، فكان أهلها يجدون تعاطفاً وملاذاً في بلاد أخرى من المسلمين، فيسألون حاجاتهم وينقسمون عنهم، كل ذلك نابع من شعورهم بالوحدة الإسلامية المتلاحمة والمتكاتفه.^٢

ثالثاً: الاستقرار النفسي والفكري:

ويتحقق عن طريق ترسيخ المسلمات الأساسية، والعمل الجادّ على قطع أسباب الاضطراب النفسي والفكري الذي يجتاح سواد هذه الأمة. وعوامل الاضطراب ترسبت في الأمة من خلال اجتيازها منعطفاً فكرياً واجتماعياً خطيراً في حياتها الحضارية. وهذا الداء العظيم يتمثل في طول المدة الزمنية التي مرّ بها هذا المنعطف. ولقد بدأت هذه الفترة منذ أواخر عصر الخلافة العثمانية، إلى يومنا هذا !.

وهناك أسباب لطول هذه الفترة الزمنية التي فقدت الأمة خلالها استقرارها النفسي والفكري معاً:

(١) البوطي، مرجع سابق، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، ١٦٠/٣.

(٢) الميادني، مرجع سابق، ٦٢٧/٣.

- (١) ضعف الخلافة العثمانية، وتسلسل الفساد إليها.
- (٢) تسلسل المتسابقون إلى المغنم من الدول الكبرى، وأخذت تتقاسم ميراث البلاد الإسلامية فيما بينها؛ حيث قامت بتحطيم الخلافة والقضاء عليها.
- (٣) نهضت الدول الأوروبية، ودخلت عصر الفضاء والصناعة؛ فانبهرت أبصارنا بهذه النهضة، وكان من أهم أسباب الانبهار؛ ضعف أسباب القوة في حياتنا، وتناثر وحدتنا بين أيدي الناهبين. ولقد استغلت بعض الدول هذا الضعف في الأمة الإسلامية، فحاولت ونجحت في بثّ فلسفة في نفوسنا، وهي أن أي نهضة كالتّي نهضتها أوربا، لا تتم إلا من وراء ثورة إصلاحية في التصورات الدينية، مهما اختلفت هذه الأديان بعضها عن بعض، وقد تُخدع كثير من العلماء والمفكرين حيث وضعوا لبلادهم - فيما زعموا - برامج إصلاحات دينية وإسلامية، كالتّي وضعها أصحاب النهضة الأوروبية^١. إن طريق الحضارة الإسلامية لا يقبل من أسس العقائد إلاّ ما جاء عن طريق اليقين، أما من يسلك طريق الشكوك والتقاليد العمياء؛ فإن الحضارة الإسلامية ترفضه، ولا تقبل بشكل من الأشكال أن يكتسب الناس معارفهم منه^٢. هذه هي العوامل التي زجّت بالأمة بالإمّة العربية والإسلامية إلى هذا المنعطف، والذي لا تزال تتعثر فيه إلى يومنا هذا!.

رابعاً: تلاحم الثقة بين قطاعات الأمة^٣:

ويقصد بقطاعات الأمة؛ ما يشمل الحكام وسائر فئات الأمة على حدّ سواء. ولا شك أن تحقق هذا الشرط، مرتبط بتحقيق الشروط الثلاثة التي ذكرناها، وعندئذ تتلاقى عوامل الثقة ما بين طبقات الأمة

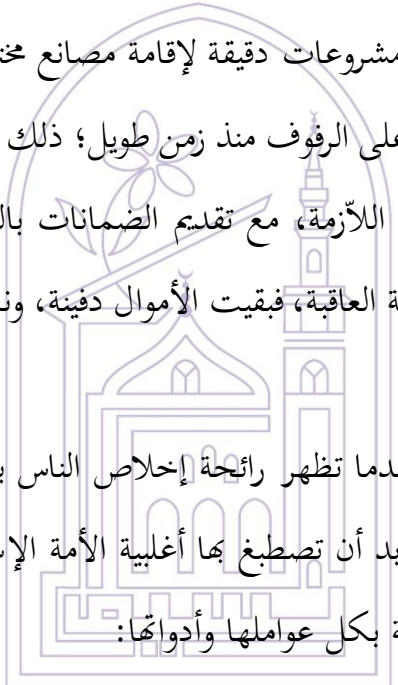
(١) البوطي، مرجع سابق، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، ١٦٠/٣.

(٢) الميادني، مرجع سابق، ٢٨٩/٢.

(٣) البوطي، مرجع سابق، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، ١٦١/٣.

وفئاتها. وقد ذكرنا أن المنجزات الحضارية، إنما هي تأتي نتيجة جهود متناسقة مشتركة، ولم تكن ثمرات لجهود فردية أو جماعية متخاصمة.

إن هذه الثقة لا تمتد فيما بين هذه الفئات؛ إلا تحت مظلة حُكم رشيد غيور وحريص على مصالح الأمة، بحيث تأتلف عليه القلوب، وتطمئن إليه النفوس. وهذا هو الذي يجعل الشعوب تستيقن إخلاص أولئك الذين يقودون قافلة التطور والنهضة، وتستشعر بأنهم يتحرقون من أجل أن يرتفعوا برعاياهم وشعوبهم إلى المستوى الأفضل.

يقول الكاتب: " وإني لأعلم أن كثيراً من أصحاب الخبرات والاختصاصات العلمية الدقيقة، في بلادنا العربية، قد فرغوا من وضع مشروعات دقيقة لإقامة مصانع مختلفة ذات أهمية قصوى لهذه الأمة، ولكن مشروعاتهم بقيت موضوعة على الرفوف منذ زمن طويل؛ ذلك لأنهم التجؤوا إلى أصحاب الأموال والثروات كي يساعدهم بالنفقات اللازمة، مع تقديم الضمانات بالريح الوفير؛ ولكن لم يجراً الأغنياء على المغامرة، ولم يطمئنوا إلى سلامة العاقبة، فبقيت الأموال دفيئة، ونامت المشروعات الصناعية والعلمية على الرفوف ".


إنّ هذه الثقة لا تنبعث إلا عندما تظهر رائحة إخلاص الناس بعضهم لبعض، ولا يأتي الإخلاص إلا بفضل التبصرة القرآنية التي لا بد أن تصطبغ بها أغلبية الأمة الإسلامية، يقيناً وسلوكاً. خامساً: استخدام الطاقات التربوية بكل عواملها وأدواتها:

وذلك لترسيخ المسلّمات الفكرية الأساسية في تربية المجتمع الإسلامي، عن طريق بذل جميع الجهود التربوية والعلمية والماديّة في سبيل أن ينقاد الناس لتلك المسلّمات، وذلك يعني أن تتشعب الأمة بالبصيرة القرآنية التي تتجلى من خلالها حقائق هذا الكون. ومن المعلوم أن المقومات (المادية) لعودة هذه الحضارة، متوفرة في أيدي هذه الأمة، أكثر من أي أمة أخرى في هذا العصر.

ولكن لا بد أن يتعلم المسلمون الطريقة الإسلامية الصحيحة التي توظف أفكارهم إلى سبيل المحافظة عليها واستخدامها لتحقيق المبادئ والقيم العليا، فإن امتثلوا لذلك؛ فإن ثروتهم ستتحول إلى أداة سحرية تبعث لهم ماضيهم الحضاري، وتعيد لهم زمام القيادة للحياة الإنسانية الحضارية^١.

إن طريق النهضة العلمية والصناعية والحضارية والعمرانية، المستند إلى العلم وعوامل الاختراع والابتكار، هو الركن التطبيقي الذي لا يتم التقدم المادي الحضاري إلا به، و الباري عز وجل سخر كل ما في السماوات والأرض لخدمة الإنسان، ومن أجل أن نقوم بالبحث والاستنتاج والاختراع والتجارب والعمل الصناعي، وقد نصّ الباري على ذلك صراحة في قصة نوح، وفي مواطن كثيرة غيرها حيث قال: " واصنع الفُلكَ بأعيننا ووحينًا... " (هود: ١٢ / ٣٧)، وهذا أمر من الله لنوح عليه السلام بصناعة اختراع جديد لم يعلمه الناس من قبل، وقد أحاط هذا الاختراع بعناية الله حيث قال: " بأعيننا ووحينًا "، فأى دعوة للابتكار والعمل الصناعي أقوى من هذه الدعوة؟^٢.

ولا ننسى أن أساس الحضارة الإسلامية تتمثل في الأخلاق الفاضلة، وهذه الأخلاق لها صور كثيرة منها: الإقرار بالحق، وشكر المنعم المتفضل، وحب الخير للآخرين، والعمل بإخلاص وصدق... إلخ. والإسلام مجّد الكمال الخلق، بل وحث على مكارم الأخلاق، ورسول الله صلى الله عليه وسلم أكد على ذلك فقال: " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق "، لذلك فإن الأخلاق هي قاعدة الحضارة الإسلامية^٣، وهي التربة الأساسية التي لا بد منها لنشأة مجتمع إنساني سليم، وهي التي تنقل الإنسان من ساحة العلم إلى نطاق العمل به، والاستفادة من ذلك العمل. ومن ثم فإن من أهم أسباب التخلف الذي حاق بأممتنا العربية والإسلامية، أنها لم تعد تملك أخلاقاً اجتماعية ينهض عليها بنيانها التقدمي والحضاري.

هذه الشروط الخمسة، هي كل ما تحتاج إليه أممتنا الإسلامية والعربية اليوم، لاستعادة ماضيها الحضاري المشرق، وإنما تتمثل روح هذه الشروط في الرغبة الجماعية المتضافرة في العمل.

(١) البوطي، مرجع سابق، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، ١٦١ / ٣.

(٢) الميادني، مرجع سابق، ٣٤٤ / ٢.

(٣) الميادني، مرجع سابق، ٧٠ / ١.

وختاماً، لا يقولون إنسان أن الغرب لم يؤمنوا بالله، ولم يتقيدوا بهذه الشروط، ولم ينالوا حظاً من البصيرة القرآنية، ومع ذلك فهم متقدمون ومتحضرّون، ينعمون بمقومات الحياة الرغيد والقوة والعزة ! ذلك لأن من سنن الله في عباده ومكوناته، أن تظل عمارة الأرض قائمة على نهجها وتطورها، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ثم إن الباري عز وجل ألزم نفسه في بيانه المحكم، أن يشرف بعمارة الأرض وقيادتها، عباده المسلمين ما دام أنهم مسلمين حقاً. فإذا انحرفوا، استلب منهم ذلك الشرف واستودعه عند غيرهم، وربما كانوا أولئك شرّاً منهم^١.



(١) البوطي، مرجع سابق، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، ٣/ ١٦٢.

الخاتمة

بعد أن عرفنا في هذا البحث الموجز، السبب الحقيقي في تحول ماضيها العريق إلى ذكريات جميلة تسطر وتروى، وعرفنا أهم موضوعات " الحضارة الإسلامية " والسّر الكامن في عودة وازدهار هذه الحضارة من جديد، هذا السّر المتمثل في تطبيق المنهج الإسلامي الصحيح في الأرض.

ومن أهم النتائج في هذا البحث:

- (١) أنّ ثروات الدنيا كلها لو أصبحت ملكاً لنا، لن يزيدنا ذلك إلا تخلفاً، ما دمنا لا نتحرك نحو الحقيقة، نحو التبصرة القرآنية التي تنطوي حقاً على مفتاح حضارتنا الإسلامية المثلى.
- (٢) أنّ من الواجب علينا ألاّ تُثنينا أخطاؤنا عن السير الحثيث لعودة الحضارة الأصيلة؛ لأنّ الباري عز وجل يدعونا دائماً للسير إلى الأمام.
- (٣) ينبغي أن يكون سيرنا علمياً عقلياً منظماً، وأن تكون يدنا واحدة؛ حتى لا تصبح الحضارة أجزاء مبعثرة، ليس لها مناظر خلابة، لأنّ الحضارة في حقيقة الأمر؛ جوهر منظّم في جميع أشتائها وأفكارها وروحها ومظاهرها، وقطب يتجه نحوه تاريخ الإنسانية.
- (٤) إن مسار عودة النهضة الإسلامية يبدأ من الأفراد والمؤسسات والجامعات، بحيث ينهض كلٌّ على حسب ما وّلاه الله عليه في التطوير والعلم والعمل بإخلاص وصدق.
- (٥) ينبغي علينا قبل أي شيء؛ الالتجاء الدائم لله سبحانه وتعالى والانكسار بين يديه، بأن يُكَلِّل جهودنا بالنجاح، وأن تعود لأمتنا نهضتها وحضارتها العريقة، وأن ترجع هيبتها من جديد.

نسأل الله أن يجمع أمر هذه الأمة على خير، وأن يرزقها عوداً حميداً لدينها وحضارتها العريقة.

الفهرس

العنوان	رقم الصفحة
المقدمة	٢
الفصل الأول: مفهوم الحضارة الإسلامية:	
المبحث الأول: أسس الحضارة الإسلامية ومصادرها	٣
المبحث الثاني: عناصر الحضارة الإسلامية وخصائصها	٥
المبحث الثالث: الحضارة الإسلامية بين الواقع والمأمول	٦
الفصل الثاني: نهضة الحضارة الإسلامية:	
المبحث الأول: الحضارة الإسلامية وعمارة الأرض	١١
المبحث الثاني: سبل نهضة الحضارة الإسلامية	١٢
الخاتمة	١٨
الفهرس	١٩
المراجع	٢٠



المراجع

- (١) الندوي، أبو الحسن (١٩٨٦ م) الإسلام أثره في الحضارة، وفضله على الإنسانية، ط ١، القاهرة: دار الصحوة.
- (٢) البوطي، محمد سعيد رمضان (١٩٨١ م) منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، ط ١، دمشق: دار الفكر.
- (٣) الديوكات، سناء (٢٠١٦ م) مفهوم الحضارة الإسلامية ومصادرها، متاح على <http://mawdoo3.com> تاريخ الدخول ١٤ / ٤ / ١٤٣٩ هـ.
- (٤) السباعي، مصطفى (١٩٩٩ م) من روائع حضارتنا، ط ١، بيروت: دار الوراق.
- (٥) جمعة، علي (٢٠٠٩ م) البيئة والحفاظ عليها من منظور إسلامي، ط ١ القاهرة: شركة الوابل الصيب للإنتاج والتوزيع والنشر.
- (٦) بن نبي، مالك (١٩٩١ م) دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، ط ١، دمشق: دار الفكر.
- (٧) البوطي، محمد سعيد رمضان (٢٠١٦ م)، لماذا تقدم الغرب وتخلف العرب، متاح على <https://www.youtube.com/naseemalsham1> تاريخ الدخول ٥/٥/١٤٣٩ هـ.
- (٨) الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة (١٩٩٨ م)، الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها، ط ١، دمشق: دار القلم.